بأيّ ذنب قُتِلت ؟!

عالم المخدرات عالم عجيب .. مليء بالأحداث والمواقف المؤثرة التي يعجز عن وصفها لسان أو قلم .

هذه صفحة من صفحات هذا العالم .. تحكي قصة معاناة عاشتها أسرة بريئة ابتليت بأبٍ ظالم .. قد شُغف قلبه بالمتاجرة في المخدرات ، وثقل سمعه عن آهات البنين والبنات .

في يومٍ من الأيام ، إبّان عملي في إحدى إدارات مكافحة المخدراتً ، كلفت بالقبض على أحد مروجي المخـــدرات الذين - مع كل أسف - تلاعبت بهم شياطين الإنس والجن ، واتخذت منهم معاول هدم في كيان هذا البلد الطاهر .

يمر شريط أحداث القضية بسرعة .. يتم اتخاذ الإجراءات التحضيرية للإطاحة بالهدف ، ومن ثم تحديد ساعة الصفر لتنفيذ المهمةٍ .. وبتوفيق من الله تعالى يتم القبض على هذا الرجل متلبساً بترويج كمية من الحبوب المخدرة .

لم ينته مسلسل الأحداث .. بل بقي فيه لحظات لا تنسى .

لقد ثبت أن هذا الرجل يتخذ منزلـه موقعاً لإخفاء المخدرات التي يقوم بترويجها وتعاطيها .. كان هذا الموقف يستلزم ضرورةً ضبط هذه الكمية وفق الإجراءات الأمنية المتبعة حمايةً للمجتمع من خطر هذه السموم القاتلة .

تقوم الفرقة بالانتقال مع المتهم إلى منـزلـه .. بالوصول إلى المنزل يترجل الجميع وقوفاً أمام باب المنـزل وقد نصب الصمت أطنابه على أفواههم ، وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة .. يتقدم المتهم نحو منزلـه .. يطرق الباب ، فتنطلق على الفور نبراتٌ من الفـــرح والسرور تملأ أفواه مجموعة من البراعــم الأبرياء وراء الباب : هيــه .. جا بابا .. جا بابا ، بينما تداعب إحدى الصغيرات أباها بكل رقة وحنان : بابا لن أفتح لك الباب .. وتالله ما علمت المسكينة ما الذي يكمن وراء الباب .

أما المشهد في الخارج، فألم وحزن يخيم على وجوه الحاضرين .. يتبادلون نظرات الأسى .. بينما أرخى بعضهم لرؤوسهم العنـــــان وهم يهزونها يميناً وشمالاً حتى اتكأت على صدورهم من شدة الموقف .

لم تمض سوى لحظات حتى فتح الأطفال الباب ، وفي مخيلتهم ذلك الأب الحبيب الذي ربما يحمل في يديه لعبة ، أو حلوى .. أو على الأقل يحمل على وجهه ابتسامة مشرقة .. لكنهم يفاجئون به مجرمًا محاطاً برجال الأمن ، فتنقلب النبرات إلى آهات .. والأفراح إلى أتراح .. والآمال إلى آلام ، فلو رأيتهــم وهذا يحتضن رجل أبيه .. وهذه تتعلق بثيابه .. وأخرى في عمر الزهور تحدق بعينيها عاجزة عن تفسير الحدث .
أقول : لو رأيتهم لبكيت بكاءً جماً .. ولتفطر قلبك ألماً .

بعد هذا المشهد المؤلم يؤدي رجال الأمن واجبهم في مشهد آخر من مشاهد الألم والشقاء ، تمثّله صورة شاحبة لبيت البؤس الذي تستظل به هذه الأسرة .. تدخل غرفة الجلوس فلا ترى إلا أثاثاً متهالكاً ، وفرشاً مبعثرة .. أما غرفة الطعام فمسرح للقذى ومرتع للأوساخ .. وأما المؤنة وما أدراك ما المؤنة فما هي إلا بقايا من الحبوب والمعلبات المعدودة .. لا تكاد تسمن ولا تغني من جوع .
ضَنْك في المعيشة .. وشَظَف في الحياة .. ومع هذا .. فالأب غارق في غفلته .. متمادٍ في إهماله لأسرته .

وفي نهاية المشهد يتم العثور على كمية من المخدرات في المنزل .. ثم يغلق الستار بمغادرة المنزل وسط عاصفة مدوية من بكاء الأبرياء الذين وقفوا على باب المنزل ..يودّعون إنساناً كانوا يتربون في كنفه .. ويتراكضون إلى حضنه .. يقال له : (بـابا) .

في خضم ذلكم المشهد المؤلم عصفت بي مشاعرٌ من الأسى تجاه هذا المجرم : أما تخاف الله ؟ ألم تفكر في هذا المصير؟ أهكذا يرعى الأب فلذات كبده ؟ ما ذنب هؤلاء الأبرياء في هذه المأساة؟ وما جريرتهم في تحمل المعاناة ؟ .
تقدمت إليه وجهاً لوجه ، سألته لعلي أجد جواباً .. لكنه لم ينبس ببنت شفة عدا كلمتين .. قال : أنا السبب ، ثم انهمك في بكاءٍ حار .. وقد قلت على لسانه :

إليكم سادة الفكرِ ... معاناتي مع الخِدْرِ
جرت فيها دموع ... ن بين السطر
الحز بقلبي ... والسطرِ وموتٌ
لوعة الأسْرِ فيا ... يقتفي أثري
حزني على التفريـ ... ـط فيما ضاع من
فكم من حبةٍ ... عمري بها الأمراض
أضحت وكم ... تستشري
سيجارةٍ أذكت ... بأحشائي لظى
فأكبو حين ... الجمرِ وأشعر
أشربها وعقلي ... أنني أجري ـر
صار بالتخديـ فلا ... بين المد والجزرِ
ألوي على أحدٍ ... يعاتبني من
تُراع بُنيّتي العبرى ... البشرِ فتقضي
أبي .. بل لست أنت ... الليل في ذعرِ
أبي أبي قد كان ... فأنت الخِبُّ ذو
يغمرني يداعبني ... الغدرِ بفيض الحب
فأسعد حيـ وأنت ... والطهرِ ـن يبدو
اليوم تغتال الـ ... باسم الثغرِ
فأضحت كل آمالي ... ـفضيلة في ربى
أقاسي الجوع و ... صدري سراباً في
الآلا لهيب اليتم ... ثرى الفقرِ م
يحرقني أبي تب ... من عسرٍ إلى عسرِ
قبل أن تُنعَى ... و حيٌّ أنت ، لا تدري
وتلقى بعدها أهوا ... وتوْسد ظلمة
إذا ما قمت للرحمـ ... القبرِ ل يوم
فيا أبتاه هل من ... البعث والنشرِ ـن
تو تهاجر من بقاع ... قد أثقلت بالوزرِ
الخِدْ ... بةٍ تنهي بها
قهري ر
للقرآن والذكرِ
.

وفي نهاية المطاف يجرى التحقيق مع المتهم .. ويقـدم للعدالة لينال جزاءه الرادع ، والـذي يمثـل فـي حقيقتـه إصـلاحاً وعلاجـاً لنفسـه المريضـة .. وصـيانةً لأسـرته وللمجتمـع بـأكمله .. و حفاظـاً علـى قـيم هـذا البلـد وأخلاقـه من أن تمسها أيدي السفهاء العـابثين .. حمـى الله بلاد التوحيد من كل شيطان مريد .